عمـلاق الشاشـة الفـرنسيـة
جان جابان JEAN GABIN

ربما كان الأكثر ملاءمة أن يُكتب على قبره : « فى نهاية المطاف ، لم يكن ذلك مسارا سيئا » . فى أحد أفلامه : الحماقة البشرية - La Bete Humaine » قاد بنفسه قاطرة سكة حديدية ، كما كان يحلم أن يفعل وهو فتى صغير . ثم تمثل فى أفلامه العديدة كل شخصيات « الكوميديا الإنسانية » التى تصنعها الحياة ، أو التى تصانع الحياة . فلما خرج هو من حياة الناس ، ترك لأسرته ثروة ضخمة ليست مختزنة فى شركات وبنوك، ولا حبيسة عمارات ومبان وأبراج ، بل أراض زراعية خصبة مكشوفة للشمس والهواء ، وترك معها ثروة أضخم وأنفع وأمتع لملايين البشر تجعله بحق أعظم ممثلى السينيما الفرنسية طوال القرن العشرين .. أى منذ بداية عصر الأفلام الروائية السينيمائية . لقد وُلد فلاحا، وآثر أن يظل - رغم شهرته ونجوميته - فلاحا ، وتمنى أن يموت على أرض مزرعته التى كانت معشوقته الأخيرة .. فى نورماندیا شمال فرنسا .. وقد كان !

فى منتصف الثلاثينيات ، كانت شخصية « جابان » بدأت تستقر فى الأذهان ، وشهرته العالمية تأخذ مكانها بين نجوم السينيما المرموقين : إنه الفتى الشرير ، الغلام الشقى، الهارب من الجندية ، محطِّم القلوب الوديعة ' المرتبط دائما بالمغامرات المثيرة ، لكنه، بأخلاقياته التى صنعها لنفسه ، يُظهر فى المواقف الصعبة سلوكا نبيلا غير متوقع، وذلك باستثناء فيلم « أسفل سافلين Bas - fonds » وفيلم

« الوهم الكبير :La Grande Illusion » .فهو القاتل فى فيلم « المدفعجية La Ban-dera » ، وفى فيلم «صدْغ الحب Gueule d'Amour » ، و « رصيف الضباب Quai des Brumes » ، وفيلم « الصباح يشرق Le jour se léve » . ولكى يصبح حرا طليقا فإنه يقتل نفسه فى فيلم « Pépé Le Moko » ، وفى فيلم « الحماقة البشرية » ، و « الصباح يشرق» . ونهايته المأساوية فى فيلم « باندیرا » هى تضحية وفداء ، وفى محتواها أيضا يأس وانتحار . إنه لا يَقْتل عبثا أو حبا فى القتل ، وإنما نقطة الضعف عنده أن يوضع فى موقف يثير غضبه . وعندما يصرخ من أعلى سقيفته أنه قاتل ، فإن رفاقه فى دور العرض السينيمائى المظلمة ، كالعامل ، والميكانيكى ، والمشتغل بالسكك الحديدية ، والبنَّاء .. يجعلونه بطلا لأولئك الذين لم تُتح لهم فرصة مناسبة، وفى أعماق قلوبهم يلتمسون له البراءة والصفح .

مثَّل تقريبا كل الأدوار ، وتقمص غالبا كل الشخصيات حتى شخصية رئيس مجلس الوزراء متخذا سمْت وهيئة « كليمنصو » [1] وذلك فى فيلم « الرئيس Le Président » وهو الفيلم الذى اختاره التليفزيون الفرنسى من بين عشرات أفلامه لكى يقدمه لملايين المشاهدين المحزونين ليلة وفاته . وإذا بهذا الباريسى الشرس الشرير القاسى القاتل يصبح سيدا مهذبا جديرا بمكانته الرفيعة فى المجتمع . فهو نجم متألق من فيلم إلى فيلم ، بل عبقرية فذة فى كل فيلم : من العظيم الشريف المبجّل فى « الرئيس »، إلى لص مبتذل متخم بالثراء فى « المال - Grisbi » ، وهو يحمل ثروته فوق ظهره فى « الموشوم - Le Tatoué » جندى سابق فى جوقة الشرف يضع وشْما ، مقلدا لوحة مطابقة لإحدى لوحات الفنان العالمى « موديليانى » ، ويضايق تاجر لوحات فنية إلى درجة الإزعاج مطالبا بعدة ملايين من الفرنكات ، فيسعى التاجر إلى سلخ جلده ، بالمعنى الحقيقى للكلمة .. ثم ينتقل إلى الجانب الآخر فى فيلم « العبور

---

(١)جورج كليمنصو Clémanceau رئيس وزراء فرنسا وخطيبها المفوَّه ، ويطلقون عليه اسم : النمر . تولى رئاسة الجمعية الوطنية (البرلمان) من ١٩٠٦ -١٩٠٩ ، ثم انتقل إلى قيادة السلطة الوزارية عام ١٩١٧فى أثناء الحرب العالمية الأولى، وأحرز شعبية ضخمة بعد انتصار فرنسا على ألمانيا ، ثم كان على رأس المفاوضين فى عقد معاهدة فرساى عقب الحرب ، لكنه استُبعد عن رئاسة الجمهورية وكانت مطمعه ، مما أحزنه وأدى إلى عزلته ، إلى أن مات سنة ١٩٢٩ .

جـان جابان فى دور رئيس محكمة الجنايات.

(إلى اليسار) : لقطة من فيلم « المدفعجية » ـ ١٩٣٥ مع الممثلة « أنا بيللا » .

(إلى اليمين) : مع النجمة الفرنسية ميشيل مورجان فى فيلم : « رصيف الضباب » وكانت بينهما علاقة فنية وطيدة استمرت ٣٨ سنة .

بباريس - La Traverseé de Paris » ، ليكون هو الفنان الرسام الشهير ، يلتقى مصادفة بمهرِّب صغير يشتغل بالسوق السوداء « بورفيل » فيحاولان الهرب معا من الجنود الألمان الذين يحتلون باريس ، وفى حقيبة سيارتهما خنزير مقطع إلى أجزاء فى حقيبة . يُقبض عليهما . لكن الفنان الشهير يُطلق سراحه ، ويتمكن شريكه من الفرار إلى ألمانيا .

من أحسن أفلامه « فى حال البؤس - En Cas de Malheur » : محام باريسى بليغ مرموق يقع فى غرام مجرمة شابة حسناء - بريجيت باردو - فيكاد هذا الغرام يقضى على مكانته وسمعته بتهديد من حبيبها الشرير ؛ ثم يصبح المحامى صاحب فندق فى فيلم «قرد فى الشتاء Un Singe en hiver » ،حيث يتعلم القرد الكبير «جابان » من جديد كيف يكون مخادعا مع القرد الصغير « بلموندو » . إنه فى جميع شخوصه : كرئيس ، أو زعيم عصابة ، أو تاجر ، أو رسام، هو هو، الممتازالمكتمل .. العظيم .

بل إنه الأسطورة ! أسطورة بناها بنفسه وعلى طريقته ، فوق دعائم من طبعه المتميز ، وظل محافظا عليها بإصرار - طبيعى غير مُفتَعل - إلى آخر يوم من أيام الوعى المتيقظ ...

فقد شاءت الأقدار أن يخبو هذا الوعى ثم ينطفىء فى مستشفى باريسى داخل حجرة تعتبر من « ابتكارات » أو « مصطلحات » العصر الحديث : غرفة الإنعاش أو العناية المركزة ، وفيها يُعزل المرء - أيّا كان ماضيه ومكانته وكفاحه وقدْره فى دنيا الناس - ليظل وحيدا ، غريبا ، غائبا ، بين أيدى غرباء ، وإن كانوا أطباء وممرضين رحماء ، لكنه مقطوع الصلة بكل من عاش معهم سنوات العمر ، وأحبهم وأحبوه ، وصحبهم وصحبوه ، وعاشرهم وعاشروه ، وأسعدهم وأسعدوه ، وتَعَلق بهم ثم ها هم - مُكرهين - يتركونه ... ليلفظ مع الفجر - ذلك الأسد العجوز - أنفاسه الأخيرة،

obeikandl.com

مخلفا وراءه تراثا ضخما تزهو به السينيما الفرنسية ، بل والعالمية ، ويستمتع به الملايين لعشرات قادمة من السنين .

فى أحد أحياء ضواحى باريس القديمة ولد « جان ألكسيس » فى ١٧ مايو ١٩٠٤ فى أسرة متواضعة الحال ، فى عصر كان الارتقاء ، والثراء ، والشهرة آمال تداعب أحلام الجميع ، خاصة أولئك الذين هم فى أسفل السلم الاجتماعى ، وإن تشدَّق الناس بتعبيرات براقة مثل : المساواة ، والإخاء ، والحرية .

فى سنوات طفولته وشبابه كان مجرد صعلوك بين كثيرين آخرين على استعداد دائما للتحرش والعراك والعض ! يقول :

« كنت كالعشب الشيطانى الذى ينمو تلقائيا بلا رعاية أو تهذيب » ..

كانت إذن فترة تسكع ، وتشرد ، وميل إلى العزلة ظل ملازما له طوال عمره . إنه يقضى أوقاتا طويلة حرا طليقا متجولا وحده فى الغابة القريبة ، يطارد ، ويصطاد الطيور بالنبْل . إنها استمرار لطفولة مشردة ، تعلمَتْ كيف تتفاهم بقبضة اليد ، وتسعى لارتكاب الأفعال الشرسة والخبيثة . وهو لا يتحرج فيما بعد أن يذكرها فى حديثه، فيقول : « كنا نسكن فى بيت كبير من الحجارة ، طويل جدا ، لكنه جميل يجاور مباشرة شريط السكة الحديد . من النافذة ، كنت أراقب القطارات العابرة ، وكان هذا يبهرنى . فكان حلم يقظتى الوحيد : أن أصبح عاملا بالسكك الحديدية . حاولتْ جدتى ومعها أخواتى الثلاث تربيتى . أما والدىّ فكنت قليلا ما أراهما : فهما من الفنانين . كان أبى صانع عربات يد ، ثم أصبح مغنيا . وأمى كانت تصنع منافض الريش ، ثم تحولت بدورها إلى الغناء، فكانت تغنى بالمقاهى الرخيصة . أما عن دراستى، فتلك مأساة ! كنت أكره المدرسة ، وأمقُت عمل الواجبات المدرسية وحفظ الدروس . لاشك أن للبيئة والوسط تأثير سيء . فى سن الخامسة عشرة كان لابد لى من عمل . وفى مثل حالنا لم يكن البحث عن عمل يعنى البحث عن الثراء والذهب ، وإنما مجرد ما يسد الجوع وهذا أمر شاق . حسنا ! لم تكن بداياتى

مع بريجيت باردو فى فيلم : « فى حال البؤس » ـ ١٩٥٨

وميشيل مـــورجان

والصيـاد فى فيلـم : « البستانى » .

عظيمة أو فخمة على الإطلاق ! بدأت بالعمل كبنّاء ، ثم عامل أسمنت ، ثم عامل فى متجر ، وأى عمل ردىء ... فى ذلك الوقت كان فى استطاعة المرء أن يعمل فى ثلاثين صنعة ، أى ثلاثين حالة شقاء وبؤس ، هذا صحيح : فقد كنت أعمل كثيرا ، وأكدح وأشقى كثيرا ، وأجنى من ذلك قليلا ، أقل القليل . لكنى تعلمت شيئا : أن أقول للناس بصدق ما أفكر فيه ، ولا أضحك فى وجْه سيىء النية أو الطوية ؛ وشيئا آخر : ألّا أدع نفسى إلى الأبد كادحا محمولا على قدميّ . كنت أجهل تماما أن الحياة يمكن أن تكون وردية ، وأن للورد عطرا وشذًى . لم أكن أعرف إلا الشوك والقَذَى والعفن. ثم جاءت الأيام الحلوة فيما بعد » .

دخل « جابان » المجال الفنى فى عام ١٩٢٣ . فقد سعى أبوه لإلحاقه «كومبارس» - أى شخصية ثانوية صامتة لا تمثل - فى الملهى الباريسى الشهير « فولى برجير » .

« لم أعرف فى البداية ماذا أفعل . وكنت عاجزا عن حفظ أى نص مهما كان قصيرا. لكن أجرى كان أكبر كثيرا مما كنت أتقاضاه فى المصانع والورشات الخانقة ، كما كان متاحا لى أن أشاهد عن قرب أجساد النساء الراقصات ، وهذا أفضل كثيرا من وجوه زملاء العمل المضنى السابق ، تكسوها الهموم والأحزان » .

لم يكن صعود « جان جابان » من القاع نحو القمة سهلا سريعا ساطعا . لقد كانت سنوات جد عسيرة . ولكى ينجح الفقير الضعيف فى تحقيق وثبة ، كان لابد له من دفعة قوية وبذل طاقة هائلة يثبت بها جدارته . أفلح « جان » فى اقتناص مكان بين زُمرة المتحركين على المسرح بين أو خلف الحسناوات الراقصات ، ثم أخذ يتنقل من ملهى ليلى إلى آخر ، قبل أن تكتشفه السينيما عام ١٩٣٠ كممثل كوميدى لديه قدرات كبيرة ...

« لم يتخلَّ عنى النجاح أبدا . ولم أنْسَ قط جذورى التعسة - البائسة . ولهذا ، عندما كان يُسند إلىّ أدوار تتعلق بالأرق والهم نتيجة للظلم الاجتماعى ، وعندما كنت أؤدى تلك الأدوار التى يناضل فيها الإنسان المطحون اجتماعيا ضد الظروف

جابان مع النجمة « مستنْجِت »
سنـة ١٩٢٢ فى فيلم وحيد لهما .

(١)

(٢)

(٣)

(١) مع الممثلة « سيمون سيمون » فى فيلم : « الحماقة البشرية » سنة ١٩٣٩ .
(٢) مع النجمة الشهيرة السمراء « جوزفين بيكر » فى فيلم : « زوزو » ـ سنة ١٩٣٤ .
(٣) مارلين ديتريش سنة ١٩٢٩ .

القاهرة المفروضة عليه ، فإننى كنت أبدو طبيعيا وعلى سجيتى . فلقد رأيت بعينىْ رأسى وعشت فى الحياة مآسى العمال ، وبيئة الأحياء الوضيعة ، وتصفية الحسابات الدامية ، والعنف القاتل ، والشقاء بكل ألوانه ، والغيرة والتباغض . كل ذلك شاهدته فى الواقع . إن الفقر والبؤس والاحتياج ، ليست من الأشياء الجميلة . إنها تنزع من الإنسان كرامته وتجرده من إنسانيته . إنها تحط من قيمته وتنزله «أسفل سافلين». إنها تنسف الحب ، وتُغْرق الصداقة والود . لقد كانت تلك الأيام قاسية مهلكة ، كان المرء يضْنيه العمل من أجل أن يأكل ، حتى لا يموت من الجوع ، وليس من أجل شراء جهاز تليفزيون أو سيارة . كان البطل حينذاك هو الذى يدور كالنحلة بحثا عن عمل أو متنقلا طوال يومه من عمل إلى عمل ليحصل على الكفاف . ولم يكن هذا متاحا لكل إنسان . فطالما كان للمرء أمعاء تتحرك فلابد لها من طعام!».

أصبح جابان الممثل المفضل لدى المخرج « مارسل كارنيه » ، والمخرج «جان رنوار » ، فصعد إلى مرتبة نجم السينيما الفرنسية فى الثلاثينيات ، وأحبه الجمهور وأطلق عليه اسم أحد أفلامه « صدغ الحب » . ثم جرب حظه فى الزواج مرتين وفشل، لأنه - بتعبيره - « كان أشبه بالاختناق بالغاز » ! وهو منذ بداية نشأته ، تعود على الانطلاق والحرية . فأفزعه تكبيل فرنسا بالأغلال إبان الاحتلال الألمانى فى بداية الحرب العالمية الثانية . فلما علم بقرب زيارة هتلر لباريس ، أسرع بالرحيل إلى أمريكا حيث سبقه عدد كبير من السينيمائيين الفرنسيين، وأقاموا فى كاليفورنيا (بالغرب) ، فى هوليوود ، جنة السينيما . فمثَّل فى فيلمين تافهين رديئين . لكن الذين عانوا من ويلات الاحتلال المتغطرس لم ينظروا بارتياح إلى أولئك الذين « هربوا » من فرنسا إلى أمريكا، مع أنه تطوع بمحض إرادته عام ١٩٤٣ فى القوات البحرية الفرنسية الحرة . يقول :

« سافرت من أمريكا على ناقلة بترول كراكب من الدرجة الثانية فى المعاملة ، وشاهدت السفن الحربية تتعرض للهجوم من الغواصات الألمانية . رأيت سفنا

تختفى إلى القاع فى لحظات إثر ضربها بقذائف الطوربيد ، وأخرى تشتعل كالجحيم ثم تنفجر. لن أنسى ذلك ما حييت . بعد ذلك استُدعيت كمدفعى بحرى واشتركت بكل مشقة واحتمال فى فرق تحرير فرنسا . لقد أديت واجبى وحصلت على استحسان قادتى . فلما انتهت الحرب وعدت إلى عملى الفنى ، وجدت أن زملاء آخرين أخذوا مكانى، وأن الناس نَسَوْنى ، فكان علىّ أن أبدأ من جديد ». لكن بين العمل فى هوليوود والعودة إلى البداية من جديد ، كانت قصة حب كبيرة فى حياة جابان ، شغلتْه ، وبالأحرى غمرتْه نحو ست سنوات ، واستمرت مع «الحبيبة » نحو ثلاثين سنة ! إلى يوم أن سمعتِ من الإذاعة فى الصباح - وهى تحتسى القهوة كعادتها - المذيع يقول : « أيها السيدات والسادة ، استمعوا جيدا إلى هذا الصوت .. إنكم تعرفونه جيدا ، وأحببتموه كثيرا (ثم انساب صوت جان جابان الرخيم يتلو قصيدة جيدة للشاعر « جان - لو – دابادى » عن الحب ، والأصدقاء ، والزهور)، ثم تابع المذيع فى صوت حزين : « إنه جان جابان ، الذى لن يتحدث إليكم بعد الآن أبدا .. فقد رحل فجر اليوم عن عالمنا » .. كان ذلك فى نوفمبر ١٩٧٦ .

هنا أدركت « مارلن ديتريش » خاتمة القصة التى عاشت لها ومعها سنوات طويلة، يحدوها أمل - ولو ضعيف - أن يضع لها جان جابان نهاية ترجوها هى وتترقبها بعد أن جاءت إلى فرنسا ، إلى باريس للإقامة الدائمة بها لتكون على مقربة منه .

كان آخر لقاء بينهما فى عام ١٩٤٦ - أى منذ نحو ثلاثين سنة قبل وفاته - عندما اشتركا معا فى بطولة فيلم « مارتان رومانياك Martin Roumagnac » ، وهو من أسوأ أفلام جابان، وقد استطاع هو أن يحصل على نسخته الوحيدة المتبقية فى السوق ، ودمرها تماما حتى يمحو أثره !

فى الفترة بين عامى ١٩٤٠ - ١٩٤٦ جمع بينهما حب عنيف لم تستطع سنوات الحرب ولا ظروفها الضاغطة أن تفرق بينهما . وبينما كان هو بعيدا عن فرنسا فى

جابان مع مارلن ديتريش فى فيلم : « مارتان روماينك » . بداية قصة حب بينهما انتهت

فى فيلم : « الوهم الكبير » ـ سنة ١٩٣٩ .

تلك الفترة تقريبا ، إلا أن أخبارهما كانت تلف باريس ، وهوليوود ، والجزائر (لم تكن استقلت عن فرنسا بعد) وأيضا : ألمانيا (لأن مارلن من أصل المانى وبدأت شهرتها السينيمائية من هناك) .

بدأ اللقاء والود بينهما فى هوليوود حينما سافر هو إليها فرارا من ضغوط وصَلَف الاحتلال الألمانى ، وكان معروفا مشهورا بأفلامه فى فرنسا . أما هى فكانت فى قمة شهرتها وتألقها فى أمريكا حتى كادت تصبح بين رواد السينيما أسطورة من خلال أفلام، مثل : « فينوس الشقراء » و « الإمبراطورة الحمراء » ، و« الملاك الأزرق» ، وكلها ترتكز عليها وحدها، وعلى جاذبيتها المثيرة . فكانت العلاقة بينهما حديث كل الأوساط الفنية والاجتماعية . لأنها بدت غير « طبيعية » : فهى التى كانت تراود خيال وأحلام الملايين من كل المستويات ، إذا بها تنحنى راضخة راغبة أمام هذا الغريب الوافد (أو الهارب) الأقصر منها طولا والأخشن لغة وسلوكا . لكنهما تجاوزا كل الأقاويل والتهكمات والغمزات ، فى تواصل حميم ، إلى أن باعدت بينهما الحرب ، كل منهما يؤدى واجبه فيها وبأسلوبه . هى : تغنى للجنود فى معسكرات جبهات القتال مرتدية ثوبا شفافا مطرزا بألف قطعة من الماس . وأحيانا كانت أصوات المدافع وضجيج القذائف تغطى على صوتها فى أثناء الغناء . ووقفت مرة تغنى للجنود المبهورين بها فوق مجموعة من القذائف سُلِّطت عليها الأضواء، وكأنها (أى القذائف) خشبة المسرح !

وفى يوم كانت تؤدى مهمتها الترفيهية قرب الحدود بالمواقع الألمانية ، فى حين - بالمصادفة - كان جابان على بعد ثمانين كيلو مترا منها فى موقع كتيبته ، وكانا من قبل على اتصال دائم يعرف كل منهما تحركات الآخر يوما بيوم . فلما سألت وعلمت بالضبط أين مكانه ، تمكنت من الحصول على سيارة « جيب » عسكرية ، انطلقت بها فى سرعة جنونية إلى أن بلغت الموقع الذى يتحصن به جابان مع سائر الجند ...فى تلك اللحظة كان بالموقع طابور عرض يمر به أحد الجنرالات يتفقد الجنود . وفيما

بعد رَوَت مارلن لصديقة لها تحتفظ بأسرارها ، قالت ، وكأنها تحكى مشهدا من رواية أو فيلم كوميدى :

« كانت نحو عشرين دبابة مصطفة الواحدة بجوار الأخرى ومحركاتها تزأر هادرة، وأنا أقود سيارتى الجيب فى خط متعرج بين الدبابات أسدد النظر إلى مَن فيها ، واثقة من أننى سألمح جان بسهولة لأنه كان حريصا على الاحتفاظ فوق رأسه دائما بالبيريه ذى الشريط الأحمر الذى سَمَحَت له البحرية بارتدائه . فلما لمحتُه ، أوقفتُ السيارة وقفزت نحو الدبابة التى كان بها وتسلقت جنزيرها من الخلف ، فلما صعدت إلى برج الدبابة صِحْت منادية باسمه . فأدار عينيه نحوى وصرخ فىّ زاجرا (دعينى وشأنى!).... » . لقد كان يعرف جيدا معنى الواجب وكيف يؤَدَّى .

بعد انتهاء الحرب ، عرض عليهما المخرج « مارسل كارنيه » الاشتراك معا فى فيلم اختار عنوانا له: « أبواب الليل - Les Portes de La Nuit »، وحاول إغراءهما بالقبول لأنهما معا ثنائى نادر ، والمفروض فى البطلة أنها أجمل فتاة فى العالم . لكنهما لم يمثلا الفيلم . وظلا معا حتى كان اشتراكهما فى فيلم « مارتان رومانياك » . وفى غداة اليوم الأخير من تصوير هذا الفيلم ، كانت المفاجأة الغامضة حتى نهاية حياة جابان : فقد تزوج « دومينيك » عارضة الأزياء عند « لانفان » ، ولم يستطع أحد مطلقا أن يعرف سر هذا الزواج السريع المفاجىء - على الرغم من أنه قابل دومينيك مصادفة (واستمرت معه إلى آخر عمره وأنجبت له ابنتيه فلورانس وفاليرى وابنه مانياس) وكأنه بهذا الزواج العاجل المباغت ، أراد أن يضع خطا فاصلا ، بلا عودة . بل اتخذ قرارا جادا ظل ملتزما به حتى النهاية : إن كل فترة مارلن ديتريش السابقة فى حياته لم يعد لها وجود . ورفض تماما بعد ذلك أن يذكر اسمها أو يتحدث عن ذكرياته معها ، أو يشاهد فيلما لها . وكان إذا ظهرت مصادفة على شاشة التليفزيون ، أدار مفتاح تغيير القنوات بهدوء. بعد سنوات طويلة ، حاول

أمام بيته (بغطاء الرأس) فى مزرعته بالريف

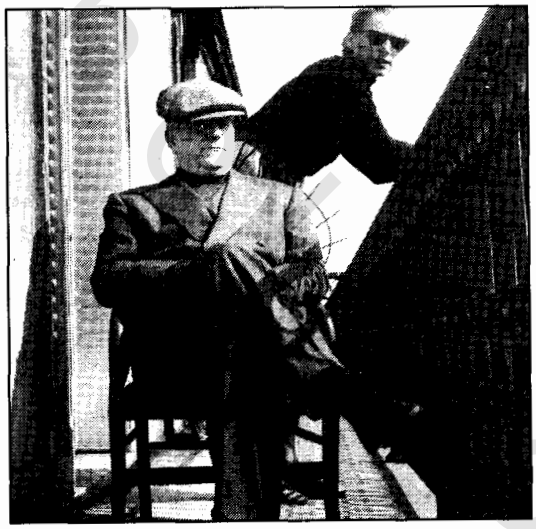

وجد جابان الاستقرار العائلى مع جين دومينيك (خلفه) التى تزوجها وأنجب منها الأبناء وظلت ترعاه حتى لحظة وفاته .

مع زوجته جين فى إحدى الحفلات ، ونادرا ما كان يسمح بتصويرها أو تدخل الإعلام فى حياته العائلية .

بعض الأصدقاء - ربما بإيعاز منها - إقناعه برؤيتها، لكنه رفض بإصرار شديد وحجته : « الزوجة ، والأولاد ... » .

ونعود إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية - ومحاولة جان جابان بناء حياته الفنية من جديد بعد أن وجد مكانه ليس شاغرا ، وكاد أن يتوارى فى ضباب النسيان . لم يكن هذا « الإحياء » أو البعث أمرا سهلا . فإن نجم الثلاثينيات أصبح الآن طرازا قديما . لم يشفع له مجده السابق ، ولا كفاحه الشاق وما بناه بجهده وكفاءته ، والذى طالما استثار غيرة الكثيرين من السينيمائيين ، بل على العكس ، صادمته العوائق والحواجز ، وخدوش الزمن على الوجه ، فغيَّرت النظرة إلى فتى الشاشة الأول السابق . لقد ازداد سمنة ، وابيض شعره ، وظهرت على ملامحه تجاعيد . وغلب عليه طابع الهجوم والعدوان . إنها سبع سنوات من القلق والضجر تمر متثاقلة . يقول :

« ذاب المدخَر من مال ، ولم أجد عملا . رأيت زملاء سابقين يغوصون فى البؤس ، وآخرين يتسولون . لم أشأ أن أستسلم للغرق . إننى لم أفلت سالما من الحرب لكى أهلك جوعا كالأوغاد ، وها هو السلام يعود . فاشتريت حينئذٍ قطعة صغيرة من الأرض فى نورماندى . قلت فى نفسى : إن الأحجار (البناء) والأرض لا تهلك أبدا . وإذا كانت حياتى الفنية قد انتهت بلا عودة ، والجمهور سئم حقا رؤية وجهى الكالح، فإن الأرض التى اشتريتها بما تبقى من مال جمعته بمشقة وجهد وعرق دون مساعدة من أحد ، حسنا ، تلك الأرض لن تخوننى ولابد من ركيزة ، مأْوى أستقر عليه أنا وأسرتى . هكذا كان قرارى . إذا كان لابد من أسرة ، ومن أبناء . إن ذاكرتى لم تنس مطلقا تجربتين عشتهما بمرارة : البؤس عندما كنت صبيّا ، والنسيان (من الناس) عندما كبرت . تجربتان محفورتان بالحديد المتوهج، ولابد أن أجنب الزوجة والأبناء آلام الاكتواء بهما » .

عندما رأى « دومينيك » - واسمها الحقيقى كريستيان فورنييه - أحس أن

سهمها نافذ فى الحال إلى قلبه . وهو الذى مرَّ به طابور طويل من الحسناوات والشهيرات ، لكن إحداهن لم يهتز لها قلبه مثلما كان مع دومينيك . وشعر من البداية أنه لا يطيق البعد عنها . فلما أخبرته أنها بحكم عملها كعارضة أزياء سوف تسافر إلى الدار البيضاء، انتابته الغيرة والقلق ، وأخذ ينظر إليها طويلا فى صمت ، متأملا عينيها الزرقاوتين وشعرها الأشقر وقوامها الرشيق وابتسامتها العذبة، ثم فاجأها قائلا : «لا سفر ، لا عمل ، سوف نتزوج فى الحال »! وكان ذلك فى الثالث والعشرين من مارس بعد ستة أسابيع من بداية تعارفهما . قال :

«فى ذلك اليوم ، وضعت بنفسى - كرجل راشد مكتمل - أجمل قيد على حياتى . كنت فى نشوة من السعادة لم أشعر بها أبدا من قبل . وفى اليوم التالى قلت لنفسى : ليس هذا كل ما فى الأمر ، هيا التزم واجبك لإطعام وإشباع عالمك الصغير هذا ، وجنِّبه قسوة الحياة ومآسيها » .

جاء الحظ مرة أخرى على يد المخرج «جاك بيكر » إذ عرض عليه بطولة فيلم « لا تلمس المال Touchez pas au Grisbi » عام ١٩٥٣ فاكتسب نجاحا كبيرا ، وظهر جابان مؤثرا ، ناضجا ، واثقا من نفسه ، معبرا بصدق شديد عن قيمة النجاح ونتائجه وانعكاساته فى الحياة ، ثم غيره وغيره . واتسعت رقعة مزرعته فى نورماندى . دائما يشترى . واقتحم مجال تربية الماشية والأغنام ، والخيول ، وتحسين نسلها ، والسباقات. لم يسلم من حقد المزارعين المجاورين . هجموا على مزرعته . اعتبروه دخيلا على حرفتهم ، جامعا للثروة من كل سبيل . لكنه الخائف من الماضى ، لم يتراجع . مضى صامدا فى حزم وعزم : « إن السينيما ليست مهنة أو حرفة . إنها ورقة يا نصيب . وأنا أعرف جيدا عمَّ أتكلم . أما الخيول ، والماشية ، والمزرعة .. تلك هى الأشياء المتينة ، وهى مجال العمل الحق ، وقد تعلمته جيدا ، أنا الذى كنت نافرا من كل التعليم . فى الليل ، عندما تنام (العظيمة) كناية عن زوجته -

فى فيلم : « لا تلمس المال » ـ ١٩٥٣ بعد العودة من الحرب

(إلى اليمين) فى فيلم : « الموشوم » ـ ١٩٦٨ مع الممثل الهزلى لوى دو فونيس

أستيقظ أنا ، وأذهب لأفترش التبن تحت الأبقار . السينيما مجال السذج ، أما أن يكون المرء فلاحا ، فهذا مجال عمل الراشدين الأسوياء . السينيما ؟.. نعم ، أعطتنى ما كنت فى حاجة إليه من أجل المزرعة ، وخزانات المياه والسماد ، والحلاَّبات الكهربائية .. وإذا كنت قد أقمت مملكة منتجة خضراء ، فهى للزوجة وللأبناء . لقد عرفت الفقر والبؤس والشقاء ، وأريد أن أجنبهم ذلك . أريد أيضا ، عندما أرحل عن دنياهم ، أن يكون لديهم ما يلبِّى احتياجاتهم .

« إن أسرتى هى كل ما أحرص عليه : عندما يعطس أحد الأبناء ، أو يسْعل (يكح) أو يئن ، أكون أنا الذى على تلك الحال ، أنهض كالصقر ، ومقياس الحرارة (الترومتر) فى يدى ، متحفزا لاستدعاء الطبيب . أنا أحبهم كثيرا هؤلاء الأبناء . وفيما بعد ، إذا لم يعجبهم ما تركته لهم ، إذا تكاسلوا عنه أو باعوه ، فهذا شأنهم . أما أنا فقد أرحت ضميرى . فعلت ما كان يجب علىَّ أن أفعله ، ومع ذلك أرجو أن يتابع ابنى نفس المسار . لقد كنت صارما معهم . لم أسمح مطلقا أن تستقبل البنتين أصدقاء بنين فى بيتى ، ولم أَدَعْ ابنى مانياس أن يكون مسرفا مبذّرا .. لم أخادعهم قط ، كما لم أغرقهم بالقُبلات . عندما أعود إلى البيت ، يسود الهدوء والسكينة . ومع ذلك ، فأنا أعرف ، نعم أعرف جيدا أن المرء يجب أن يكون فى أسرة تسودها روح الجماعة والعشيرة .

« أما عن دومينيك - الزوجة - فإننى لم أكن أتوقع من زوجة أن تعطى أفضل من عطائها . فى مثل سنى ، فى المساء يُحب المرء أن يتدثر ، وأن يجلس إلى التليفزيون أو يقضى وقتا فى الحديث والسمر . إن لى مثالبى . وهى تملك الصبر . قريبا سوف أسلم العُهدة (أى أرحل عن الدنيا) - سوف يأتى الدور على أولادى للسهر على راحتها ، وعلى شئون المزرعة . فى سن الثانية والسبعين ، وعلى الرغم من وزارة المالية وضرائبها التى تستقطع نصف دخلى وعائد جهدى ، فإن لى الحق أن أستريح .

مع بلموندو فى فيلم : « قرد فى الشتـاء » ـ ١٩٦٢

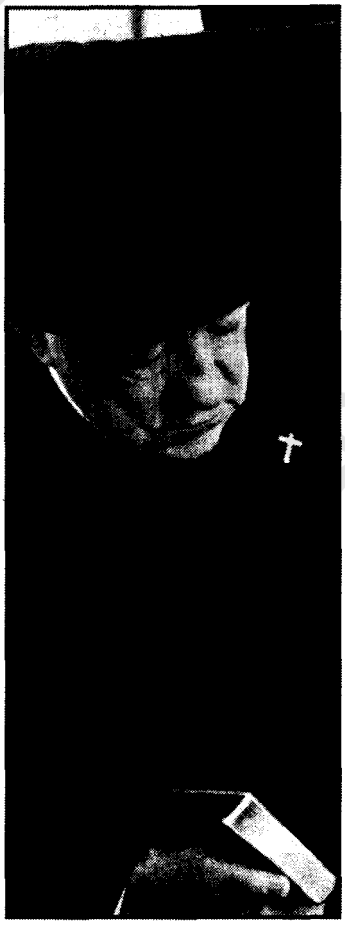

آخر أدواره فى فيلم : « السنّة المقدسة » حيث يؤدى دور لص محتال يتخفى فى زى قسيس .

فى مزرعته

لقد عِشْت المشقة والفاقة ، كنت لا أُحْتَمَل ، مهووسا . باختصار لم أعش حياة الطفولة الوردية كما كان يجب . أعترف بذلك ، ولم يكن ذنْبى . إذا كنت فى حياتى كثيرا ما تأففْت ، فما ذلك إلا لأننى كثيرا ما أحبَبْت ... » !

استخدم جابان فى فيلم « الرئيس » ذروة كفاءته وقوته الفنية وسيطرته فكان قمة أفلامه الثلاثة والتسعين .

* * *